شجرة الميلاد

اللواء ٢١ كانون الأول ٢٠١٧

أبرز ما انطبع في ذهني من مشاهد عيد الميلاد هو شجرة العيد.

أتأملها خضراء رغم انفصالها عن جذورها، زهراء رغم اشرافها على الهلاك، لم تصفرّ اوراقها كمداً، أو تنكمش اغصانها جزعاً، عندما امتدت إليها يدُ الإنسان، تبتر الجذع الريّان، وتحمل الفرع اليتيم في حضن التربة الأم، إلى صدرالدار الغريبة، حيث لا شمس ولا ندى ولا خفقة جناح، ولا جيرة أدواح.

دمية بلا حراك، سدّوا في وجهها منافذ الفضاء، ومسارب النسيم، وغمروها بضباب من ابخرة التبغ والخمر والادهان.

لعبة للأطفال، يتجاذبون أطرافها، فلا تصيح بل تهمس بالأنين الرقيق، مخافة ان يبتعدوا عنها، تبسط ذراعيها فوقهم كأنها تبارك رؤوسهم الطائشة، وتميل بحملها نحوهم كما اثقلوها بالعلب والتمائم في شوق الى لمسات أيديهم البريئة. لقد زرعت الأحلام في قلوبهم، فحصدت البسمات من شفاههم.

ليلة السلام على الأرض، هي ليلة استشهادها. وساعة المسرّة للناس هي ساعة احتضارها.

السماء تنسج لها الاكفان البيضاء، بينما الأولاد يرقصون حولها، والنجمة تودّعها بشعاع كئيب، بينما ربّة البيت تغمض عيون النافذة، فإذا اطل الصباح ألفاها هيكلاً متداعياً تعرّى من الحلى والشموع، وانطرح بين احطاب الموقد لكي يشيع الدفء في المنزل من انفاسه المحترقة.

إنها لا تجتاز محنة بل تؤدّي رسالة. ويسعدها ان تختم أدوار حياتها بدور مفيد، وان تلفظ روحها في جو البهجة والترانيم. سيّان عندها قصرت الحياة أم طالت، ما دامت قد اتسعت لرسالتها.

وما اجملها رسالة تجعل من بنت الغاب المغمورة سيّدة العيد وعروس البيت، تحفّها الأنوار وتزفّها الاهازيج.

وما اشرفها رسالة ترفع سليلة التراب من حضيض المتعة الدنيا، إلى قدس التضحية المثلى، فتشترك مع البشر في نعمة الميلاد، ومع الله في معجزة الفداء!

كثيراً ما قلتُ في نفسي بعد هذه التأمّلات:

ألا ينبغي لي أنْ أجعلَ من حياتي شجرة ميلاد مستمرّة؟

د. جهاد نعمان